نحو أدب خالد

بقلم احمد سويد

قال صاحبي وهو يتلو عليّ قصيدة من الشعر الغزلي الخانع :

« تفضل ... ان صاحب هذه العصماء الكسيحة يطمع ايضاً في الخلود ، يطمع ان يخلده الهراء والكلام الذي رث واهترأ لكثرة ما لاكته الألسن ومضغه العلاكون ، يطمع ان تخلده العاطفة الباردة المكذوبة التي لم تنجح اللفظة العارية في تزوير هويتها وإقناع الناس باصالتها » ...

... وقذف صاحبي بالمجلة التي حملت في بطنها اكثر من كسيحة ومضى يدمدم :

« وبعد هذا يتساءلون عن السر القاهر الذي يجعل معطيات هذا الجيل ترقد في توابيتها اللفظية تنتظر رحمة النسيان ، كما ينتظر المشلول اليائس رحمة الديان ! »

... صدق صاحبي ، فان أدب هذا الجيل إلا أقله أدب لفظة بكماء ناصلة فقدت زخمها الحياتي وزهو اللون ، فعوى في جوفها الفراغ ، وتصلب في بنيانها الحرف فماتت ، وجفتها طاقتها التعبيرية فما يرف في ظلها إيحاء ، ولا ينداح في مداها همس .

أدب لفظة عاجزة خمد فيها اللهب العبقري ، واصيبت بفقر الدم لأنها تخففت من كل شحنة انسانية فكانت صدى ذاتية تنفخها تفاهة « الأنا » وتتخمها خيلاء الفردية .

ادب لفظة صفراء هزيلة لا تحس فيها توتر التجربة الذي يهيىء عملية الخلق ، ولا صدق العفوية النابعة من اعماق الحس ، ولا نشوة الرعشة الجمالية التي تنتظم المعطى الأدبي لتكون علة خلوده ورجحانه في ميزان القيمة .

اما الجمالية التي نقصد ، فهي جمالية البؤس الذي يكدر حيوات الناس وينفذ اليه قلم الاديب ليصوره تصويراً حياً يعصف بالنظم الجائرة ويزلزلها بلا هوادة .

جمالية القلق الذي يفتعل في النفوس ولا يجد له منفذ تنفيس الا في ادب فاعل قادر ، يستطيع ان يكون نقطة التحول في حياة كل مجتمع .

جمالية الواقع الانساني الذي يبرزه التفاعل القوي بين الاديب وبيئته واندماجها الكلي في العطاء .

لقد قام في مجتمعنا الى جانب الصنمية السياسية ، صنمية فكرية حجّرت ادبنا ، وجعلته ادب مومياء ، ذا قيمة متحفية ، فنحن ما زلنا نستلهم الهواء فيما نكتب والسحاب فيما نعطي ، ونأنف ان تلامس اجنحتنا تراب الارض .

نبكي لعنكبوت يموت منتحراً في سجنه الذي نسجه ، او لفراشة يحرقها غباؤها وغيها ، ولا تختلج فينا جارحة لموت الآلاف من اخواننا في حربٍ تشعلها أحقاد المادة وضغائن الانسان .

وننتشي لاطلالة القمر ، وتغيب عبر الوهم حين يتخطف حواسنا جمال زهرة ، ولا ننتشي لجائعٍ يجد الشبع بعد ان مزّق احشاءه الحرمان او لمريضٍ يجد الدواء بعدما هدّ الاعياء فيه مناعة الكيان .

وينقضّ باشق على حسون ، فتفيض قوافي شعرائنا عبرات ، وتتبارى مواهبهم في تصوير المأساة ، وينقضّ الطغاة على شعب آمن ، يمزقون حرياته وينكلون بالاباة من ابنائه فينضب الوحي وتقبع عفاريت الشعر في قماقمها ، وترتد المواهب العبقرية الى شرانقها .

وتجالد نملة حبة قمح لتحملها الى عنابر المؤونة في قريتها فتثير بطولتها الاسطورية الف لون من الخواطر الشعرية في مخيلات شعرائنا ، ويضطرب الكادحون حولهم ويجالدون حظوظهم ، ويجبلون لقمة صغارهم بالعرق والدم ، وينتزعونها من شدق الرعب والهول ، فلا تحرك نضالية الكادحين وتراً من اوتار قيثارهم ، ولا تثير نزوة من نزوات شيطانهم .

نحن لا ندعو الى تجاهل الطبيعة وجمالاتها وما توحيه ملاحظة عوالمها من تأملات ولا ندعو كذلك الى الاعراض عن العالم الداخلي وما يمور فيه من أحاسيس ورؤى يروق للاديب ان يتحدث عنها ويشرك بها الناس دون ان يهمه رأي الناس فيما اعطى ، ولكننا ندعو الى ادب ينافح عن الكرامة الانسانية قبل ان يلهو بغمز النجوم ونجوى القمر ، ويبرطع في فسيح السماوات . إلى ادب يعالج مشاكل الناس ويصور همومهم

ويسحل اللحظات الفرحة في حبواتهم قبل ان يغوص في مشاكل الدويبات والحنافس ، وهموم الزواحف .

إلى ادب لا ينطوي الاديب فيه على ذاته ليجتر هذه الذات ، وينسى ما يضطرب حوله من مآسٍ وافراح ، ويغلق حسه دون ضجيج الحياة وصخبها .

إلى ادب انساني يبشر بالاخاء ويحارب البغضاء ، ويروّض ذلك الوحش البغيض القابع في اعماق الانسان .

إلى ادب مفاهيم يجعل من الأديب حامل رسالة لا إماماً في هندسة اللفظ ، ومعملاً لصب الكلام .

هذا الادب الذي ننشد ، اخذت تباشيره تتصاعد من ارجاء دنيانا العربية حادة كصرخات البجع ، لتعطي أدبنا الحديث سمة الحياة ودفقة الدم ، ففي كل قطر عربي طليعة شابة انبتتها اوكار البؤس فمدت اعناقها من فوهات الثقوب لتصور الرعب الذي تعيشه الديدان الآدمية في ظلمات هذه الاوكار ، والحقد الذي يتململ في نفوسها فيغذي العاصفة ، ويهيىء الاعصار .

لقد آمنت هذه الطليعة الشابة بواقعية الأدب ، فراحت تترجم بامانة ، تطلع الناس إلى واقع لا تشوهه العبوديات ولا يمسخه تسلط القوي على الضعيف ، ويوم يستطيع ادبها ان يزلزل ابراج العاج ، ويهدمها على رؤوس ساكنيها الذين يعيشون في عوالم من الوهم والضباب والانطوائية ، ويوم تكتمل لهذا الأدب الفتي الشاب عناصر النضج والتركيز والعمق ، ويقف على قدميه شامخاً جباراً ... يومذاك نستطيع ان نقول للغرب بزهو المنتصر :

« خذ ... هذه روائعنا . لقد اهتدينا إلى ينابيع الأدب الحي ، فلن تتربع وحدك على عرش الخلود بعد الآن ! »

احمد سويد

يصدر قريباً

قصائد دافئة

مجموعة شعرية لأحمد ابو سعد

منشورات « دار الأحد » بيروت

العيد المرّ

[الى «صائد الذباب» الكسول : عبد الوهاب البياتي]

•

... ويقول لي جار صديق
هلاّ خرجنا للطريق ؟
للشارع السكران بالعيد الجديد ..
نلهو كما تلهو وفود الناس في مرح بليد ..
... فأجيبه : إني لأخجل يا رفيق ،
من عاري المرذول .. من فقري اللعين !
وأخاف تهزأ فاتنات الحي من ثوبي العتيق ..
... فأعود احمل كل بؤس الشارع المزدان بالفرح الحزين !!

★

... إني اخاف الشارع المجنون بالعيد الجديد ؛
وأخاف يلمحني غني ظالم ..
ويقول في هزء حقود :
هذا شريد !..
فألوكه ، ويقال عني آثم ،
وحشٌ ، فقير من نفايات الوجود !!

★

... أو قد أرى بين الصغار الضاحكين
طفلا حزين !
اقعى على طرف الطريق
يخفي أساه بعبرتين ..
... اسماله متهرئات كالحياة
كعدالة الله الرحيم
فأعود في ثغري الصلاة
كفرٌ ... وأومن بالرجيم !!

★

... إني لأخشى كل عيدْ ،
وأخاف من ألمي الدفين
ان يستثار ، فأنتمي للثائرين
في كل أرجاء الوجود
واعيش اكفر بالحدود ...
فأساق مثل الآخرين
لنهيم كالمتشردين ،
نحيا ... على امل بعيد !!

دمشق — **علي الجندي**